«البلونوت». ثلاثُ ساعاتٍ من موسيقى الجاز كانت كافية كي أخرج إلى الشارع وأرى ما لم أصدِّقه: نيويورك.

مرةً أخرى، صوت القطارات.. والمومس «ماري»، وباعة الصحف.. وكانت واقفةً مثل آلهة توزِّع الخير على العبيد والقدر.. وكانت تدور تدور تدور.

كندا

أكثر من تفرّغ

باسم زنتوت

بعد ليلٍ طويلٍ من الأحلام المزعجة أستيقظ «أشرف» صباحاً وأخبر زوجته بأنه قرر أن يترك وظيفته ويتفرغ للكتابة. بحلقتْ منى في عينيه، وكأنها كانت تبحث عن شيء في داخلهما: لم تكن تلك المرةَ الأولى التي يثير فيها أشرف هذا الأمرَ. لكنّ المرات السابقة كان يغلب عليها طابعُ التمني، أما الآن، فقد اكتست كلماته عزماً وتصميماً.

كان أشرف قارئاً بامتياز. وقد قرأ مرةً أنّ نهاية القراءة هي الكتابة، ومنذ ذلك الوقت عقَدَ العزمَ على أن يصبح كاتباً. كانت له بعد ذلك محاولاتٌ كثيرة في الكتابة، ولكنْ لم يُكتبْ لها النجاح. ففي كل مرة كان يجلس ليكتب يكتشف أنه لا يجد شيئاً يكتب عنه. وقد ردّ أشرف هذا التعثر إلى نمط حياته: «لا يمكن لأيّ شخص يقضي ثماني ساعات في الوظيفة، ويخرج منها بعد ذلك لقضاء حوائج البيت، أن يأتي آخرَ النهار بذهنٍ صافٍ يمنحه أفكاراً يصفها على الورق. الكتابة تحتاج إلى تفرغ». كانت تلك قناعةَ أشرف التي كثيراً ما كان يردّدها على مسامع زوجته.

بعد أن أبلغ أشرف زوجته بقراره عاد إلى غرفة النوم. لم تجد ما تقوله له، فاكتفتْ بالنظر إليه. بدأتْ عقاربُ الساعة تقترب من الثامنة. اختلستْ منى نظرةً إلى غرفة النوم. لا شيء يدل على أنه ستكون هناك لحظة أخيرة يَعْدل فيها أشرف عن نيته فيتوجه إلى عمله مصطحباً معه الأولادَ كي يوصلهم إلى المدرسة. كان أشرف لا يزال في ثياب النوم وقد بدا عليه الشرودُ. وتجنباً لأيّ جدل، قررتْ منى أن توصل الأولاد بنفسها.

بانغلاق الباب خلف الزوجة والأولاد، استعاد أشرف حريته، فأرخى الحبل لأفكاره.

«كي تكون البدايةُ ناجحةً لا بد من اختيارٍ مسبّقٍ للمواضيع التي ستعالجها رواياتي... أمْ أنها ستكون قصصاً قصيرة؟ لن أشغل بالي بهذا الآن. المواضيع الاجتماعية هي خيرُ ما يمكن أن يعالجه الأدب، فهي الأقرب إلى الناس. لكنْ كيف أعالج هذه المواضيع؟ أبأسلوبٍ جادٍ؟ أم بأسلوبٍ كوميديّ ساخر؟ ماذا لو بدأتُ بمعالجة الأسئلة الفلسفية الكبرى؟ لا بد لكل كاتبٍ من أن تكون له بدايةٌ فلسفيةٌ. ولكنّ القراء لا يستسيغون كلُّهم مثلَ تلك الموضوعات. فالأفضل أن أبدأ بكتابة الخاطرة والتأمل لأنها هي الأقرب إلى ذاتي. ومن جهة أخرى ليس من الحكمة، في هذه المرحلة على الأقل، أن أبدأ بكتابة سيرتي الذاتية؛ فالكتّاب الكبار لم يكتبوا سِيَرَهُم إلا بعد نضوج تجربتهم».

كانت هذه الأفكار ترسم في رأسه دوائر بدا تقاطُعُها فيما بينها أمراً مستحيلاً. تحركّ المفتاحُ في الباب الخارجيّ. أغلقتْ منى البابَ خلفَها وتوجهتْ مباشرةً نحو غرفة النوم. وقفتْ عند الباب تراقب زوجَها يقلّب صفحاتِ كتاب. كان من الواضح أنه لم يكن يقرأ كلمةً واحدة. لم يرفع أشرف نظره إلى زوجته. كان الصمت ثقيلاً لا يعكره سوى حشرجةِ الصفحات المنقلبة. «هل أنت جاد في قرارك تركَ الوظيفة؟» بدأتْ منى. عادت الصفحاتُ لتنفرد بحشرجتها في تعكير الصمت، قبل أن يجيبها أشرف قائلاً:

ـ نعم أنا جاد في قراري.

ـ ألن تتصل بالشركة لتبلغها بالأمر؟

ـ حين يتصلون بي سأخبرهم.

عاد الصمت من جديد. أغلق أشرف الكتاب ووضعه على الطاولة قرب السرير.

ـ أشرف، أنت تأخذ الأمور ببساطة.

ـ أنتِ تضخّمين الأمورَ بغير داعٍ.

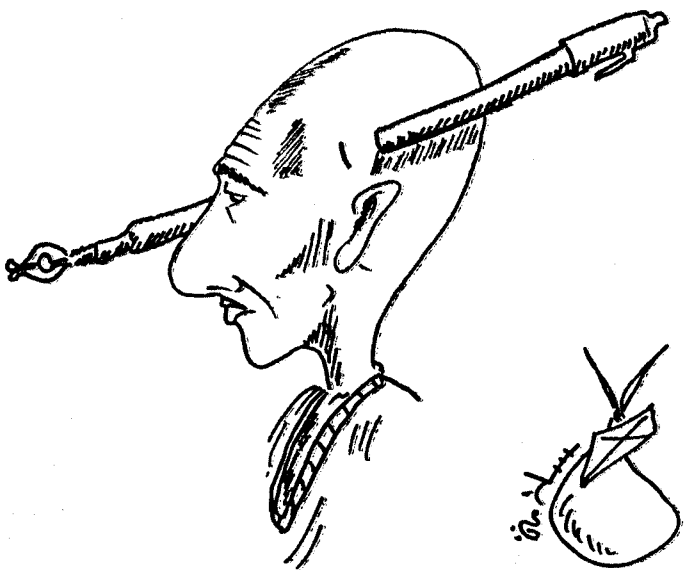

ـ أنا أضخّم الأمور؟!

بدأت الحدة تعلو نبرةَ صوتها. فاجأتها برودتهُ.

ـ هل أنتَ مدركٌ عواقبَ قرارك هذا؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ كيف سنتدبر معيشتنا؟ كيف ستتدبر معيشة أولادك؟

ـ الأموال التي وفّرناها في العامين الماضيين تكفي في الوقت الحاضر.

ـ كان من المفترض أن ننفق هذا المال على إصلاح البيت، أم تراكَ نسيت؟

ـ سنعوّضها في الأعوام المقبلة.

ـ وكيف ستعوِّضها إذا جلستَ في البيت بغير عمل؟

تمدّد أشرف على السرير وغطّى وجهه بساعده. رأت منى أن تُنهي هذا الجدل الذي اتّضح أنه لن يثمر شيئاً. مشت إلى غرفة الجلوس. جلستْ على الكنبة. أطلقتْ بصرَها عبر النافذة. وغرق البيتُ في الصمت.

قبل طلوع الشمس في اليوم التالي أستيقظ أشرف على رنين المنبّه. أعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة قبل أن يجلس إلى طاولة الكتابة في إحدى زوايا غرفة النوم. أضاء المصباح الكهربائيَّ الصغير الذي يقبع على الطاولة. كان أشرف يعتبر أنّ هذه هي الأجواء المثلى للكتابة: «أجلس تحت الضوء تلفني الظلمة» ـ بهذه الكلمات كان يحبّ أن يصفها. بقي عدة دقائق يحدّق في الورق أمامه، والقلمُ بيده ينقر الطاولةَ نقراً خفيفاً رتيباً. وضع القلم من يده. خرج إلى الشرفة. كان الهدوء والبرد يسودان الأجواء. عاد إلى الغرفة وجلس إلى الطاولة. تناول القلم من جديد. كانت أسنانُه تفترس طرفَ القلم حين انتبه إلى أنّ الضوء المتسرِّب عبر النافذة بدأ يبدد الظلمة في الغرفة. تحركتْ زوجته في الفراش. قامت تعدّ الإفطار. اجتمعت العائلة حول المائدة. كان الصمتُ يخيِّم على الجلسة.

ـ بابا، ألم تذهب البارحة إلى العمل؟ ـ خرقت ابنته سارة، البالغةُ من العمر خمساً، الصمت.

ـ لا لم أذهب.

ـ وهل ستذهب اليوم؟

ـ أكملي إفطاركِ أنتِ وأخوك، واستعدّا للذهاب إلى المدرسة.

أنقذتْ منى الموقف بكلماتها حين رأت أنّ أشرف حار في الجواب. أفصح أشرف بعد ذلك لزوجته عن رغبته في إيصال الأولاد إلى المدرسة، فقالت: «إنْ كنتَ لا تشعر برغبة في الخروج فلا مانع عندي من إيصالهم».

ـ لا أنا سأتولى ذلك. وأظن أيضاً أنني سأمرّ عليهم بعد انتهاء الدوام».

كانت منى تعلم تماماً لماذا فضّل أشرف أن يُبقي مهمة توصيل الأولاد بعهدته: «لا يريد لمشهد الصباح أن يتكرر مرة أخرى» قالت لنفسها.

* * *

مر أسبوعان لزم أشرف خلالهما البيت. كان يستيقظ قبل طلوع الشمس. يُعدّ قهوته ويجلس كي يكتب. كانت سلّة المهملات تمتلئ بأوراقٍ ممزقةٍ إثر كلّ جلسةٍ. كانت منى خلال النهر تَسمعه يكلّم نفسه بصوتٍ عالٍ تعتريه الحدة. وكانت في أحيان أخرى تفاجأ بضربٍ قويٍّ على الطاولة يتبعه صوتُ تمزيقِ أوراق. وقد يخرج من البيت ساعتين أو أكثر، يعود بعدها ليحبس نفسه في الغرفة. وقد قررتْ أن تتركه لحاله، آملةً أن يتجاوز محنته في وقت قريب.

ذلك المساء خرج أشرف من البيت. قادته قدماه إلى الطريق البحريّ. كانت سماء ذلك المساء تتباهى بأعداد لامتناهية من النجوم بعد أن انجلت الغيومُ التي حجبتها عدةَ أيام. وكان ضوءُ الشارع ينعكس بريقاً أصفر على الإسفلت الرطب بماء المطر. وقف أشرف في مواجهة البحر مستنداً إلى الحاجز الحديديّ للرصيف. بدا الأفقُ المظلم امتداداً لما يصطرع في رأسه تلك اللحظة، وتحوّل مقامُه إلى مشهد اعترافٍ أمام البحر:

«الأيام تمر ولم أستطع أن أكتب شيئاً. لا بدّ أن رُهاب الورق ما هو إلا ضميرٌ يحاول أن يضع حداً لتطفلي على ما يحتاج إلى أكثر من التفرغ. فلو قرأتُ كتبَ الدنيا كلها لن أصبح كاتباً، ما دمتُ أفتقر إلى موهبةٍ تملك وحدها أن تضعني في خانة المبدعين».

قطع سيلَ أفكاره مشهدُ ابنه عماد ـ الذي يبلغ من العمر ستاً ـ حين جاءه منذ يومين يستفسر عن سبب انقطاعه عن القراءة. عرض عليه حينها أن يأتيه بكتابٍ، وبنظّارته. رَسَمَ المشهدُ على شفتيْ أشرف ابتسامةً خجولة: «كثيراً ما كانت زوجتي تحاول أن تقنعني بأن أكتفي بالقراءة. أذْكر كلماتها حين أسألها عن إمكانية أن يعيش المرءُ بغير هدف، فتجيبني: 'ولماذا تريد أن تكون الكتابةُ هدفاً لك؟ أيجب أن يتحول كلُّ قارئ إلى كاتب'؟. قد تكون منى على حق، ولكني أحتاج إلى وقت كي أُقنع نفسي بهذا الكلام. زوجتي أدركتْ هدفها مبكراً. كانت تقول دائماً إنّ عائلتها هي هدفُ حياتها».

كانت العائلة تجتمع حول مائدة الإفطار صباحَ اليوم التالي. كان أشرف قد ارتدى ثيابه باكراً. كان يراقب زوجته وهي تتناول إفطارها بصمت. كان الأولاد ينظرون إلى والدهم بأعينٍ مُنَكِّسةٍ حين ألتفت إليهم قائلاً بصوتٍ مرتفع لا يخلو من الحماس: «أريدكم أن تنتهيا من إفطاركما بسرعة، فلا أريد أن أتأخر اليومَ عن عملي».

طرابلس (لبنان)